الفصل الثالث

جوانبُ رفاعة الطهطاوى

١ــ رفاعة الطهطاوى المصلح

ا ــ إصلاحات فى التعليم

يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين : «كان من العادات الظريفة التى اندثرت أن يجتمع الجم الغفير من العلماء والأمراء والأغنياء والتجار فى ليلة من ليالى رمضان فى بيت السادات فى « بركة الفيل » ، ويجلس الشريف الحسيب النسيب شيخ السادات مجلسه الفخم الوقور يمنح الرتب والألقاب لمن شاء من الزوار ، ولكن ليست رتبة « باك » ولا « باشا » ولا نحو ذلك ، إنما هى ألقاب وكنى يستمدها من الوحى الصوفى ، والإلهام اللدنى ، فهذا أبو الأنوار ، وهذا أبو الوفاء ، وهذا أبو البركات ، وهذا أبو الخير ؛ ففى ليلة من هذه الليالى الرمضانية كان من الزوار شيخنا الشيخ رفاعة ، فتفرس فيه شيخ السادات ، ونظر إليه بقلبه ، ثم قال له : « اذهب فأنت أبو العزم ، وكذلك كان ، وكانت كنيته موفقة ، فأبرز صفات الشيخ رفاعة عزمه ».

أجل ، فقد كانت أبرز صفات رفاعة عزمه ، وعزمه القوى الذى لا يكل ولا يفل ، وقد لاحظنا كيف كان الرجل دائب العمل جم النشاط فى كل أدوار حياته ، وقد ظلت هذه الصفة تلازمه حتى آخر سنى حياته ، فنلاحظ أنه لم يقنع بعمله فى قلم الترجمة رغم كثرته ، فامتد نشاطه إلى ميادين أخرى كثيرة ، تتصل كلها بالتعليم وإصلاحه ، وبالتأليف والترجمة .

فى هذا العهد ، عين رفاعة عضواً دائماً فى « قومسيون المدارس » وهو المجلس الذى كان ينظر فى السياسة العليا للتعليم ، ويضع النظم والقوانين والبرامج للمدارس ، وكان رفاعة العضو الدائم الوحيد بهذا «القومسيون » ، أما بقية الأعضاء فهم نظار المدارس العليا ، وكانوا يتغيرون بين الحين والحين ، كما أنهم كانوا يستدعون كلما اقتضت الضرورة استدعاءهم .

وقد كان لرفاعة جهد مشكور فى تنظيم تدريس اللغة العربية ، ومحاولات طيبة لإصلاح هذا التدريس ، فكان يمتحن الشيوخ والفقهاء كل عام ليتخير من بينهم الأكفياء الصالحين لوظائف التدريس .

وكان يزور المدارس للتفتيش على هؤلاء المدرسين واختبار كفايتهم ، ثم يترك لهم قبل مغادرة المدرسة التقارير الصالحة وفيها بيان إرشادى لخير الوسائل الممكن اتباعها لتدريس اللغة العربية مع مراعاة الظروف المختلفة كنوع المدرسة وسن التلاميذ ومدة الدرس . . . إلخ .

ولاحظ رفاعة — بعد هذه الجولات التفتيشية ، أن الكتب التى بين أيدى التلاميذ كتب غير صالحة ، فبدأ يضع بنفسه كتباً جديدة هى الخطوة الأولى بحق فى سبيل النهضة بالكتب المدرسية فى تاريخنا التعليمى ، وكان رفاعة يسترشد فى عمله الجديد بما رأى وما درس من كتب فرنسية فى أثناء تلقيه العلم فى فرنسا .

بدأ رفاعة بكتب النحو ، فلاحظ أن الكتب الأزهرية القديمة التى يستعملها التلاميذ كتب عقيمة لم تعد تصلح للعصر الحديث ، فوضع كتاباً جديداً أسماه « التحفة المكتبية فى القواعد والأحكام والأصول النحوية ، بطريقة مرضية » ، حاول فيه تبسيط القواعد النحوية ، وجعله فى شكل جداول مختلفة ليسهل على الطلبة فهمها وحفظها .

ولاحظ رفاعة أيضاً أنه لا يوجد بين أيدى التلاميذ كتب للمطالعة مع فائدتها التى لا تنكر فى تزويد الأولاد بالمعارف العامة ، فوضع كتابه الطريف

« مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » ليسدّ به هذا النقص ، وحاول فيه — لأول مرة — أن يبث فى نفوس النشء معنى الوطن والوطنية ، فهو يتحدث فيه حديثاً مفصلا عن « المنافع العامة ؛ » وينقل فى حديثه الشواهد من الشرق والغرب ، تسعفه فى ذلك ثقافته الإسلامية والفرنسية ، ويختم الكتاب بفصل عما يجب « للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة » .

ب — تعليم المرأة

ويعتبر رفاعة — بحق — أول داعية لتعليم المرأة فى مصر — بل فى الشرق كله — ، فقد ذكر يعقوب أرتين فى كتابه عن التعليم العام فى مصر أن لجنة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ اقترحت العمل لتعليم البنات فى مصر ، وقد كان رفاعة عضواً من أعضاء تلك اللجنة ، غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ ، لأن المجتمع المصرى لم يكن على استعداد وقتذاك لقبول هذه الفكرة ، واكتفى بإنشاء مدرسة المولدات والقابلات .

وتجددت الفكرة بعد ذلك ، وكان رفاعة من أكبر الداعين لها ، ففى سنة ١٨٧٣ أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر ، أنشأتها « جشم آفت هانم » وقبل إنشاء المدرسة بسنة واحدة أخرج رفاعة كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، وفيه يدعو للفكرة ويمهد لظهورها فيقول : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلا ، ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحهن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى . . . إلخ » .

هذا ملخص الدعاية الجريئة التى بثها رفاعة لتعليم البنت ،وذلك قبل قاسم أمين بثلاثين عاماً ونيف .

٢ ــ رفاعة الطهطاوى المؤلف والصحفى

ومن هذه الجهود السابقة نلمح كيف خطا رفاعة الخطوة الثانية فبدأ ــ إلى جانب الترجمة ــ يؤلف ويصنف ، بل إن جهوده فى التأليف تفوق جهوده فى الترجمة ، ولم يقصر جهوده فى هذا الميدان على الكتب المدرسية والتعليمية وحسب ، بل وضع مشروعاً لإخراج مؤلف كبير فى تاريخ مصر من أقدم العصور إلى عهده ، ولكنه لم يخرج منه إلا الجزء الأول وعنوانه « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل » ، وقد تناول فيه الكلام عن تاريخ مصر القديم وتاريخ العرب قبل الإسلام ؛ ويقول تلميذه ومؤرخ حياته صالح مجدى إنه أتم الجزء الثانى ، ولكننا لم نعثر عليه .

وفى هذا العهد أيضاً أخرج رفاعة مؤلفاً تاريخياً آخر عن سيرة الرسول ــ عليه السلام ــ ، وعنوانه : « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » وكان قد نشره فصولا فى مجلة « روضة المدارس » .

وفى غمرة هذا النشاط فكر على مبارك فى إصدار مجلة علمية تكتب فيها الأبحاث باللغة العربية ، ولم يلبث أن أخرج فكرته إلى حيز التنفيذ ، وعهد برئاسة تحرير المجلة إلى رفاعة يعاونه ابنه على فهمى رفاعة مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن وقتذاك .

تلك هى « روضة المدارس » أول مجلة مصرية ، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) أى قبل وفاة رفاعة بثلاث سنوات ، وقد اشترك فى تحرير أعدادها المختلفة نخبة طيبة من أعلام المصريين فى القرن الماضى أشهرهم : على مبارك ، وعبد الله فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمد قدرى ، ومحمود الفلكى ، وإسماعيل الفلكى ، والمسيو بروكش ــ ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ــ ، وأحمد ندا العالم النباتى الكبير ، وصالح مجدى ، وعبد الله

أبو السعود ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى ، والشيخ حمزة فتح الله . . . إلخ .

وكانت موضوعاتها متنوعة تتناول النواحى والدراسات الأدبية والعلمية والفقهية والاجتماعية والتاريخية ، كما كانت تنشر بها بعض المقطوعات الشعرية ، وخاصة « للشاب النجيب إسماعيل أفندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الإدارة » .

وظل رفاعة يتولى رئاسة تحرير الروضة إلى أن مات فتولاها من بعده ابنه على بك فهمى .

٣ ـ رفاعة الرجل

قاسى رفاعة كثيراً فى حياته ، وخاصة فى السنوات التى قضاها فى السودان ، ومع هذا فقد احتمل الألم فى قوة وصبر ، شأن العظماء من الرجال .

كانت سياسة مصر وحكومتها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر تهدف إلى نقل علوم الغرب ونظمه الجديدة مع الاحتفاظ لمصر بطابعها الشرقى ، وكان رفاعة خير نموذج للرجل الذى يمثل هذه السياسة ويعمل لتحقيقها ، فهو قد قبس قبسين : قبساً من علم الشرق ، وقبساً من علم الغرب .

وقد أخذ رفاعة تلاميذه بهذه السياسة ، فخرجوا ـ فى جملتهم ـ صوراً منه ، يتقنون اللغة العربية وعلومها ، واللغات الأجنبية وعلومها .

كان أصحاب رفاعة يسمونه « الشيخ رفاعة » ، فلما سافر إلى باريس كان أصدقاؤه من الفرنسيين والمستشرقين ينادونه « المسيو رفاعة » ، ولما عاد إلى مصر وعين فى المدارس الجديدة سمته الحكومة « رفاعة أفندى » ، ولكنه رقى بعد ذلك إلى رتبة القائمقام فأصبح لقبه « رفاعة بك » ، وقد رقى رفاعة ـ منذ عاد من باريس ـ فى سلم الرتب العسكرية من الملازم الثانى إلى أمير الآلاى .

كان رفاعة دائم العمل ، دائب النشاط ، واسع العلم ، وافر الذكاء ، كثير الإنتاج ، ومع هذا لم يمنح فى حياته لقب « الباشوية » ، ولم يصل كغيره إلى مرتبة « النظارة » وهذا أمر يبدو غريباً ، ولكن الأستاذ عبد الرحمن الرافعى يعلله بما كان يمتاز به رفاعة من شمم وإباء وشهامة ، فهو يقول : « ولا يمكن تعليل كل ذلك من ناحية الكفاءة والجدارة ، فإن كفاءة رفاعة بك كانت منقطعة النظير ، وجدارته معترف بها من الجميع ، فبقاؤه فى « نظارة قلم الترجمة » وعدم بلوغه مرتبة الوزارة ، وهى النهاية التى يتطلع إليها من ينتظمون فى سلك المناصب الحكومية لا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى ما اتصف به رفاعة بك من الشمم والإباء ، فإن هذه الصفات على كونها من أسمى الفضائل ليست محببة إلى الرؤساء وولاة الأمر ، ولا ترغبهم كثيراً فى أصحابها ، ولا تميل إلى إسناد المناصب الرفيعة إليهم » .

٤ ــ رفاعة الوطنى

وهناك صفة هامة من صفات رفاعة تستحق الالتفات والتسجيل ، فقد كان فيها الرائد الأول للمصريين جميعاً فى العصر الحديث ، تلك هى عاطفته الوطنية القوية ، كان رفاعة يحب مصر حباً قوياً ملك عليه نفسه ، وكان الدافع له إلى الإخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه ، وقد تغنى بهذا الحب كثيراً فى شعره ، بل نحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن معظم شعره قصائد ومقطوعات وأناشيد وطنية .

وفى كتبه المختلفة كان يعقد الفصول الطوال للتحدث عن الوطن والوطنية ، وتحليل هذا المعنى وضرب الأمثلة بمن عاشوا وضحوا فى سبيل أوطانهم ، أثار هذه العاطفة فى نفسه طبيعته الخيرة ، وقوّتها ثقافته الواسعة فى باريس ، ودراسته

للعلوم الفلسفية والاجتماعية والسياسية هناك ، وأذكاها أيضاً أنه شاهد ثورة الشعب الفرنسى فى سنة ١٨٣٠ ،فقد رأى بعينه كيف يبذل الفرنسيون أرواحهم فى سبيل وطنهم وحريتهم ، ونماها أخيراً حركة الإحياء التى عاصرها رفاعة والتى كانت ترمى إلى النهضة بمصر حربياً وثقافياً واقتصادياً .

وشعر رفاعة لا يرفعه إلى مرتبة الشعراء الممتازين كشوقى ومدرسته ، ولكنه يفضل كثيراً شعر معاصريه ، فقد ارتفع بشعره عن الأغراض المتداولة فى أيامه — كالمديح والرثاء وتأريخ المنشآت والغزل . . . إلخ — إلى أغراضه السامية من التغنى بحب مصر ، والإشادة بذكرها وذكر جيشها المجيد ، ومواقعه الحاسمة ، وأبطاله الصناديد . . . إلخ . وشعر رفاعة مبعثر — حتى الآن — فى كتبه المؤلفة والمترجمة ، ويحتاج — فى رأيى — إلى من يجمعه فى ديوان خاص ويعنى بدراسته وتقديمه إلى القراء .

* * *

وبعد فهذه لمحة عن رفاعة الرجل ، بل البطل ، قضى حياته فى العمل ، والعمل النافع ، وظل على نشاطه ودأبه على الإنتاج حتى أوفى على الخامسة والسبعين فنالت منه الشيخوخة ونال منه المرض ، فأصيب بالنهاب فى المثانة ، ولبث يعالج منه مدة حتى حان الحين ووافى الأجل المحتوم ، فأسلم الروح إلى بارئها ، وكان ذلك فى أول ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ (٢٩ مايو سنة ١٨٧٢ م) فاهتزت مصر كلها لموته ، ونشر ابنه على بك فهمى رفاعة نعيه فى العدد السابع من السنة الرابعة من مجلة « روضة المدارس » ، ولست أجد أخيراً وصفاً لجنازته وما أصاب الناس من ألم لوفاته خيراً من قول المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، قال :

« . . اهتزت مصر لموته (أى رفاعة) ، واحتشد لتشييع جنازته الألوف المؤلفة من رجال المعارف والأمراء والنبلاء وتلاميذ المدارس ، وازدحمت الشوارع بالناس يردون بعض جميله : يذكره الأزهريون على أنه ابنهم ، والمتعلمون المدنيون

على أنه أبوهم ، والجالية الفرنسية على أنه أخوهم ، والمصريون كلهم على أنه مؤسس نهضتهم ؛ وكلهم يتوجع لفقده ، ويشيد بذكره ، وسار المشهد من منزله بالمهمشا حتى إذا قارب المدينة كان ينتظره شيخ الأزهر وعلماؤه وطلبته ، فاشتركوا فى تشييع الجنازة ، ووضع النعش فى القبلة الجديدة ، ولا يكون ذلك إلا لعظيم ، وأخذ الأفاضل فى رثائه بالقصائد والخطب ، ثم حمل إلى « بستان العلماء » حيث طويت صحيفته ، وبقيت آثاره خالدة تعظم وتتزايد وتتوالد ، رحمه الله فقد صنع لأمته كثيراً . . . » .

أجل ، رحم الله رفاعة رحمة واسعة ، فقد صنع لأمته كثيراً . . .